إشكاليّة "المفهوم ضمنًا" في دراسة اللّهجات العربيّة: "الكشكشة" نموذجًا

نور إغباريّة[1]

اقتصرت اللّغة العربيّة المدوّنة على تسعة وعشرين حرفًا أساسيًّا، دُوِّنَت ونُقِلت في الكتب إلينا كما نعهدها الآن. إضافة إلى تلك الحروف، زوّدتنا المصادر القديمة بحروف تتعدّى ذلك ليصل مجموع الحروف كلّها إلى ما يقارب اثنين وأربعين حرفًا، فتكون الثّلاثة عشر حرفًا الإضافيّة هي حروف موجودة في اللّغة العربيّة لكنّها غير مدوّنة، بل منقولة مشافهة فحسب، أي منقولة على الألسن غير مدوّنة بأشكال معيّنة في الكتب، وهي مصنّفة بين "مستحسنة" و"مستقبحة".

إنّ الوصف الدّقيق "للبدائل الصّوتية" ومخارجها في المصادر القديمة هو مكتوب فحسب، ليس مسموعًا، ولا مدوّنًا بحروف أبعد من العشرين والتّسعة الّتي نعرفها، ما قد يشكّل ارتباكًا وتخبّطًا في المفاهيم اللّسانيّة المعاصرة والقديمة على حدّ سواء. هذا الأمر قد يؤدّي إلى تطرّق الباحثين المعاصرين إلى الحروف "المستقبحة"، أو الزّائدة على الأبجديّة المعروفة، بأسلوب يخدم توثيقها وفقًا للأصوات والحروف المسموعة في أيّامنا هذه. بالتّالي، قد يحصل لبس في وصف ظاهرة لغويّة موصوفة في المصادر القديمة وخلطها، بل وتوثيقها، على أنّها نفس الظّاهرة اللّغويّة الموجودة حاليًّا، والتّطرّق إليها كأمر مفهوم ضمنًا وأنّ النّحاة واللّغويّين العرب أخطأوا في وصف تلك الظّواهر اللّغويّة، نظرًا لأنّه لم تكن معدّات تكنولوجيّة تساعد في حفظ الصّوت، علمًا أنّ النّحاة العرب اجتهدوا في وصف ظاهرة لغويّة بكلمات دقيقة مختارة بعناية.

---

[1] ماجستير، جامعة حيفا.

أركّز في هذه الورقة على إشكاليّة "المفهوم ضمنًا" في دراسة اللّهجات العربيّة، اعتمادًا على وصف الحروف العربيّة عند النّحاة واللّغويّين العرب، ونقلها على يد الباحثين المعاصرين. سأبدأ بعرض زمنيّ لِأَبْرَزِ المؤلّفات اللّغويّة القديمة وأساليب عرض مؤلّفيها للحروف العربيّة، لأعرّج بعد ذلك على نقل بعض الباحثين المعاصرين -أجانب وعربًا- للحروف العربيّة المنقولة تدوينًا ومشافهة، باستخدام ظاهرة "الكشكشة"، الّتي وصفها النّحاة العرب أنّها إلحاق كاف المؤنّثة المخاطبة شينًا، وتوصف في الأبحاث المعاصرة كبديل صوتيّ للكاف/ڜ/ (تْشْ)، مثالًا للتّوضيح.

يُعتَبَرُ الفراهيديّ (ت. 173هـ/ 789م) أوّل من ألّف معجمًا في اللّغة العربيّة، وليس **كتاب العين** الّذي ألّفه كتابًا لغويًّا عاديًّا، بل هو قبل كلّ شيء كتاب لغويّ-صوتيّ بامتياز. ويمكن لمس هذا من مقدّمة كتابه الّتي أُشيرَ فيها إلى أنّ الفراهيديّ، حين تأليفه للكتاب، صنّف كتابه وفقًا لترتيب الحروف حسب مخارجها، لا حسب ترتيبها الأبجديّ المعروف، ولم يتطرّق إلى حروف غير الحروف الأبجديّة التّسعة والعشرين المذكورة والمعروفة[2]. هذا مع العلم أنّه يُعَدّ أوّل من نبّه إلى مخارج الحروف.

يتطرّق سيبويه (ت. 180هـ/ 796م) إلى حروف اللّغة العربيّة وصفاتها ومخارجها، فيذكر أنّ "أصل الحروف العربيّة تسعة وعشرون حرفًا"، وأنّها تصل إلى "خمسة وثلاثين حرفًا بحروف هنّ فروع، وأصلها من التّسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها ويُستحسن في قراءة القرآن والأشعار"، ثمّ يضيف أنّها "تكون اثنين وأربعين حرفًا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة

---

[2] راجع: الخليل بن أحمد الفراهيديّ، **كتاب العين**، تحقيق: مهدي المخزوميّ؛ إبراهيم السّامرّائيّ (بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1988)، مقدّمة المحقّق، 1: 27-6، 47. هذا إضافة إلى أنّه عاش عصر التّدوين الأوّل (القرن الثّاني للهجرة/ الثّامن للميلاد). حول موضوع بداية التّدوين راجع: محمّد عبد الكريم الوافي، **منهج البحث في التّاريخ والتّدوين التّاريخيّ عند العرب** (بنغازي: جامعة قار يونس، 1990)، 189-187.

في لغة من تُرتَضى عربيّته، ولا تُستحسَن في قراءة القرآن ولا في الشّعر"[3]. أنواع الحروف "غير المستحسنة" هذه لا تصنّف ضمن لهجة محدّدة ما أو لقبيلة ما، بل ركّز سيبويه على أنّ "هذه الحروف الّتي تمّمتها اثنين وأربعين، جيّدها ورديئها، أصلها التّسعة والعشرون، لا تُبَيَّن إلّا بالمشافهة"[4]، مع التّركيز أنّه لا يسمّيها لواحق أو حروفًا مدمجة أو حروفًا أجنبيّة عن العربيّة. هذا التّصريح الأخير يؤكّد أنّه كان من الصّعب تدوين وصف لمخرج تلك الحروف بالشّكل الدّقيق لنقلها إلينا نحن اللّاحقين.

في نفس السّياق، أشار المبرّد (ت. 285هـ/ 899م) في **المقتضب** إلى وجود خمسة وثلاثين حرفًا في اللّغة العربيّة، "منها ثمانية وعشرون لها صُوَر"[5]، أي مكتوبة مدوّنة. واللّافِت لديه أنّه لا يرى الحروف السّبعة الباقية "فروعًا" لها، بل يشملها ليشير إلى أنّها كلّها تابعة للّغة العربيّة، إلّا أنّه يوضّح أنّ الحروف السّبعة الأخرى -المتمّمة للخمسة والثّلاثين- "جارية على الألسُن، مستدلّ عليها في الخطّ بالعلامات، أمّا في المشافهة فموجودة"[6].

من جهة أخرى، حرص ابن دريد (ت. 321هـ/ 933م) في **جمهرة اللّغة** على ذكر جملة "من الحروف المرغوب عنها"[7]، والّتي عرّفها أنّها "حروف لا تتكلّم بها العرب إلّا ضرورةً، فإذا اضطرّوا إليها حوّلوها عند التّكلّم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها"[8]. يبدأ ابن دريد كتابه بمعلومة عن عدد الحروف المستخدمة في كلام العرب: "اعلم أنّ الحروف الّتي استعملتها

---

[3] عمرو بن عثمان سيبويه، **كتاب سيبويه**، تحقيق: عبد السّلام هارون (بيروت: دار الجيل، 2013)، 4: 431.

[4] ن. م.، 4: 432.

[5] محمّد بن يزيد المبرّد، **المقتضب**، تحقيق: حسن حمد (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1999)، 1: 223.

[6] ن. م.، 1: 223. ربّما يقصد بهذا أنّهم كانوا يزيدون إشارات على الحروف للدّلالة على الحرف المنشود.

[7] راجع: محمّد بن الحسن بن دريد، **جمهرة اللّغة**، تحقيق: رمزي منير بعلبكيّ (بيروت: دار العلم للملايين، 1987)، 1: 43-41.

[8] ن. م.، 1: 41.

العرب في كلامها في الأسماء والأفعال والحركات والأصوات تسعة وعشرون حرفًا [...] وهذه الحروف تزيد على هذا العدد إذا استُعمِلت فيها حروف لا تتكلّم بها العرب إلّا ضرورةً"[9].

تطرّق ابن جنّي (ت. 392هـ/ 1002م) إلى الحروف، مراتبها، وصفاتها، ومخارجها (وهو ما نَهَجَ عليه سيبويه، المبرّد وابن دريد قبله)، إذ رتّبها "على مراتبها في الاطّراد". وذكر ابن جنّي أنّ حروف اللّغة تسعة وعشرون حرفًا، وأضاف أنّ هناك ستّة أحرف قد "تتفرّع عنها، حتّى تكون خمسة وثلاثين حرفًا"، ويوضّح أنّ هذه "السّتّة حسنة يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام"، مضيفًا أنّه قد "تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف، وهي فروع غير مستحسنة، ولا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشّعر، ولا تكاد توجد إلّا في لغة مرذولة غير متقبَّلة". وهنا لا بدّ من الإشارة إلى أنّ ابن جنّي وضّح أنّ هذه الحروف الأربعة عشر اللّاحقة للتّسعة وعشرين لا يصحّ أمرها "إلّا بالسّمع والمشافهة"[10].

من جملة الحروف المزيدة على التّسعة والعشرين حرفًا المدوّنة حتّى يومنا في اللّغة العربيّة، ذكر النّحاة واللّغويّون العربُ الحروفَ المنقولة مشافهة عن طريق استخدام حرفين من الحروف المدوّنة، ووصف الحرف المراد ذكره أنّه بين ذينك الحرفين. مثال على ذلك الحرف الّذي وُصِفَ أنّه بين الشّين والجيم، الحرف الّذي بين الياء والجيم، الحرف الّذي بين الياء والشّين، الكاف الّتي بين الجيم والكاف، الجيم الّتي كالكاف، الجيم الّتي كالشّين، والشّين الّتي كالجيم وغيرها[11]. إنّ هذا التّقريب في وصف النّطق بالحرف يوضّح أنّ تلك

---

[9] ن. م.

[10] عثمان ابن جنّي، **سرّ صناعة الإعراب**، تحقيق: حسن هنداوي (دمشق: دار القلم، 1985)، 1: 46. وهذا نفس التّصريح الّذي وُجِدَ عند سيبويه والمبرّد وابن دريد، وهو دليل أنّ هذه الحروف لم تُدوَّن ولم يُعرف حقًّا الأسلوب الّذي لُفظت به، بل لا تُعرف طريقة النّطق الصّحيحة لهذه الحروف، وقد يعلّل هذا الأمر وجود اللّغط والخلط واللّبس في الحروف، تدوينًا، وشرحًا، ولفظًا.

[11] ن. م.؛ سيبويه، **الكتاب**، 4: 431؛ ابن دريد، **جمهرة اللّغة**، 1: 42.

الحروف فعلًا لم تُدرَك إلّا بالمشافهة، وأنّ مخارجها وصفاتها تكون بين حرفين مدوّنَيْن في اللّغة العربيّة من التّسعة والعشرين حرفًا. كذلك، فإنّ تدوينها يكون بأحد الحروف التّسعة والعشرين، كالشّين أو الجيم، علمًا أنّ الحديث يدور عن حرف بين حرفين، وهذه نقطة هامّة لا بدّ من الانتباه لها.

ممّا يثير الانتباه، أنّ ابن جنّي وصف في **سرّ صناعة الإعراب** مخرجَ "الشّين الّتي كالجيم" -على سبيل المثال- وصفًا دقيقًا قدر الإمكان، إذ أشار إلى أنّها هي "الشّين الّتي يقلّ فيها تفشّيها واستطالتها، وتتراجع قليلًا متصعّدة نحو الجيم"[12]. إضافة إلى ذلك، اختصر ابن جنّي في شرح الحروف "غير المستحسنة"، وَوَصَفَهَا بأنّها "مستقبحة، وفي شرح أحوالها طول، فتركناه لذلك، لا سيّما وليست الحاجة إليها كهذه، إلّا أنّ المشافهة تأتي عليها وتوضّح لك حالها"[13]. وبهذا أكّد ما ذكره سابقًا في تعداده للحروف العربيّة حول إدراك بعض الحروف بالمشافهة والسّماع فقط. بهذه الطّريقة اختصر ابن جنّي كلّ المشكلة الّتي نواجهها كباحثين في مجال اللّغات واللّهجات وتدوينها، كونها معرفة أنّ هناك الكثير من الحروف الّتي اختُصِر الحديث عنها ببساطة لأنّهم لم يرَوا في تدوينها حاجة. هذا بالإضافة إلى الالتزام بعدد الحروف المحدود في اللّغة العربيّة، وهي التّسعة وعشرون حرفًا، وتجري مقارنة سائر الحروف/ الأصوات وفقًا للحروف الموجودة ويرجّحون وجودها بين حرفين معروفين.

أرى أنّ الحرف الّذي ذُكِر كأحد تلك الحروف، المنقولة مشافهة فحسب، يشكّل حلقة الوصل الأساسيّة بين المؤلّفات النّحويّة القديمة وبين الأبحاث المعاصرة، وهو الحرف "المستحسن" الّذي وُصِفَ أنّه بين الشّين والجيم، مضافًا إليه الحرف "غير المستحسن"

---

[12] ابن جنّي، **سرّ صناعة الإعراب**، 1: 50.

[13] ن. م.: 51.

الّذي وُصِفَ أنّه بين الجيم والشّين[14]. ولعلّ وصف الحرفين (المعترضيْن بين حرفين من التّسعة والعشرين) وإتباعهما مع عدد من الحروف الأخرى، يشير إلى أنّ اللّغويّين والنّحاة العرب أمدّونا بمعلومات هامّة جدًّا، وهي وجود لهجات فصيحة -أي لهجات لغتها الفصحى- ولكن باستخدام ظواهر لغويّة تستدعي النّطق بحروف معيّنة غير الحروف المتّبعة.

إجمالًا، حتّى تلك الفترة، وفي تلك المؤلّفات المذكورة، كان التّطرّق إلى ما عُرِفَ بِـ "الكشكشة" تطرّقًا شبه سطحيّ لعرض أسلوب لغويّ نُسِبَ إلى بعض القبائل العربيّة، مثل تَمِيم وأَسَد وربيعَة وبَكْر ومُضَر. وقد ميّزوه بشكلين أساسيّيْن: الأوّل إلحاق الكاف المخاطبة المؤنّثة شينًا، والثّاني إبدال الكاف المخاطبة شينًا، وأحيانًا تمّ ضمّ الظّاهرتين تحت عنوان "الكشكشة"، هذا بالإضافة إلى عدم الاستقرار في عزو الظّاهرة إلى قبيلة واحدة أو قبائل محدّدة. وكلتا الحالتين لا تصفان الكشكشة بمفهومها الحاليّ في الأبحاث المعاصرة الّتي تصف هذه الظّاهرة على أنّها حرف مزجيّ بين التّاء والشّين. فيما يلي سأتطرّق إلى أبرَز المراجع الّتي يؤخَذ بها تقريبًا في جميع المراجع الحديثة، الّتي شكّلت أساسًا مرجعيًّا لتُبنى عليه النّظريّات اللّغويّة الحديثة.

---

[14] أشدّد أنّ النّحاة العرب قد فرّقوا بين الحرفين، فاستحسنوا الأوّل فيما استقبحوا الثّاني، مع العلم أنّهم تطرّقوا إلى كليهما على أنّهما حرفان من اللّغة العربيّة. مثال على ذلك: يقوم ابن دريد في شرحه عن "الكشكشة" بضمّها فيما أسماه "الحروف الاضطراريّة"، ويحدّد أنّه "إذا اضطرّ هذا الّذي هذه لغته [الكشكشة] قال: جيدش وغلامش بين الجيم والشّين". ويعطي لذلك أمثلة تقتصر فقط على إبدال الكاف شينًا، فيذكر أنّهم "يقولون: غُلَامِش، أي غلامك يا امرأة إذا خاطبوا المرأة. قال راجزهم: تَضْحَكُ مِنّي أَنْ رَأَتْنِي أَحْتَرِشْ/ وَلَوْ حَرَشْتِ لَكَشَفْتِ عَنْ حِرِشْ/ عَنْ واسِعٍ يَغْرَقُ فِيهِ الْقَنْفَرِشْ. أي عن حِرِكِ، فجعل كاف المخاطبة شينًا. وأنشد أبو بكر لمجنون ليلى: فَعَيْناشِ عَيْناها وجِيدُشِ جِيدُها *** سِوى عَنَّ عَظْمَ السّاقِ مِنْشِ دَقيقُ، أراد عَيْناكِ وجِيدُكِ ومِنْكِ وأنَّ". راجع: ابن دريد، **جمهرة اللّغة**، 43-42.

كان الثّلث الأوّل من القرن العشرين الميلاديّ "العصر الذّهبيّ" لبحث العربيّة السّوريّة-الفلسطينيّة، وذلك في نهاية الفترة العثمانيّة وبداية الانتداب البريطانيّ[15]. من أهمّ المؤلّفات في تلك الفترة كان **كتاب الكرمل** لفون مولينين (von Mülinen)[16]، وفيه ميّز فون مولينين بين لهجات قرى المسلمين ولهجات قرى الدّروز. على سبيل المثال، لاحظ فون مولينين وجود اختلافات صوتيّة مميّزة في حرفي الكاف والجيم، إذ تطرّق إلى صفاتها المختلفة بين الشّدّة والرّخاوة والانفجاريّة والهمس، ومخارجها كالحنك العلويّ بتقسيمه (أدنى، وسط وأقصى الحنك)[17]. وهذا الأسلوب يذكّر بأسلوب وصف الحروف المنقولة بالمشافهة عند النّحاة العرب، بل ويكتفي بوصف الظّواهر اللّغويّة عن طريق وصف الأصوات بواسطة تقريبها للحروف العربيّة المعروفة.

وقد شكّل الأطلس اللّغويّ للباحث الألمانيّ بيرجشتراسر (Bergsträßer)، الّذي أعدّه عام 1915[18]، مرجعًا هامًّا في بحث اللّهجات الفلسطينيّة-السّوريّة. إذ قدّم بيرجشتريسر في هذا الأطلس وصفًا عامًّا للّهجات المتداولة في مناطق سوريا وفلسطين (الّتي أُطلِقَ عليها كذلك "بلاد الشّام")، وأرفق فيه خرائط لغويّة تفصّل انتشار الظّواهر اللّغويّة في تلك المناطق.

---

[15] סימון הופקינס, "לאונהרד באואר (1865-1964): ערביסט חלוץ ב'בית היתומים הסורי' בירושלים", **קתדרה 158** (טבת תשע"ו, 2015), 77. وقد أسهمت رابطة ال IPA (International Phonetic Association)، الّتي ظهرت في أواخر القرن التّاسع عشر، في توثيق اللّهجات بالنّقحرة اللّاتينيّة المخصّصة لذلك.

[16] خاصّة أنّه كان ضليعًا باللّغة العربيّة ولهجاتها. راجع: אהרון גבע-קלינברגר ויוסי בן ארצי, **הכרמל של פון מולינן** (ירושלים: הוצאת ספרים ע"ש י"ל מאגנס - האוניברסיטה העברית, 2013), 4 و-7-9.

[17] גבע-קלינברגר ובן ארצי, **הכרמל**, 14.

[18] Gotthelf Bergsträßer, *Sprachatlas von Syrien und Palästina* (Leipzig: J. C. Hinrichs, 1915).

وقسّم المجموعات المبحوثة فيها بالأساس إلى بدو (Beduinen) وحضر (Ansässige)، وصنّف اللّهجات في أطلسه وفقًا لهذا التّقسيم. وقد اكتفى بعرض الميزات الصّوتيّة لكلّ منطقة في سوريا-فلسطين. ولكنّه حاول تقريب الأصوات غير المدوّنة في اللّغة العربيّة إليها، فيذكر مثلًا أنّه سمع في منطقة "سولم" صوتًا حنكيًّا - أسماه "كافًا حنكيًّا" وصفه أنّه يكون "فوق الجيم"، وأنّه سمعه/č/ (تْشْ)[19]، مع العلم أنّه لم ينسب هذا اللّفظ لأيّ لهجة عربيّة موصوفة في كتب النّحاة العرب قديمًا.

وأمّا كانتينو (Cantineau) فقد خصّص كتاب **دروس في علم أصوات العربيّة** ليشمل فيه أهمّ ما يمكن التّركيز عليه بالنّسبة لعلم الأصوات في اللّغة العربيّة، فصّل فيه مخارج الحروف العربيّة وصفاتها، كما عمل على توضيح العلاقات بين الحروف عن طريق عرض نظام حرفيّ فيه أزواج وثواليث حروف في اللّغات السّاميّة عامّة[20]. نقطة التّحوّل لدى كانتينو تبدأ، على ما يبدو، عندما شرع بالتّطرّق إلى الحروف "المستهجنة" الّتي ذكرها النّحاة العرب، خاصّة عندما ذكر "الكاف الّتي كالجيم"، فأعطى مثالًا على ذلك التّحويل الصّوتيّ في كلمة "كافر"، وذكر أنّ في هذا الحرف تكون "جافر" عوضًا عن "كافر" ["ğāfir pour kāfir"]. وعلّل ذلك عن طريق مقاربة الأصوات الحنكية، موضّحًا أنّه "لمّا كان الكاف حرفًا مهموسًا

---

[19] "In Sūlem habe ich zahlreiche schattierungen von ‘palatalisiertem’ *ḱ* über *tj* bis *č* gehört". See: Ibid.

[20] جان كانتينو، **دروس في علم أصوات العربيّة**، ترجمة: صالح القرمادي (تونس: مركز الدّراسات والبحوث الاجتماعيّة، 1966)، 27؛ Jean Cantineau, *Cours de Phonétique Arabe: Suivi de Notions Générales de Phonétique et de Phonologie* (Paris: Librairie C. Klincksieck, 1960), 16.

والجيم مجهورًا، فالمفروض أن يكون هذا النّطق المذكور هو/č/ عوضًا عن الكاف"[21]. لكنّه يبدأ بعد ذلك بربط هذا النّطق بتعريف "الكشكشة" الّذي كان عند النّحاة العرب -إبدال كاف المخاطبة شينًا- متسائلًا إن كان هذا الإبدال هو نفسه الألوفون/č/ الّذي قد توصّل إليه سابقًا أنّه نفسه "الكاف الّتي كالجيم"[22]. بعد ذلك، يورد تحليلًا صوتيًّا- تسلسليًّا من الكاف إلى الشّين، مرورًا بالألوفون /č/: "وأمّا سبب إبدال الكاف شينًا ساكنة أو مكسورة فواضح: فقد أصبحت الكاف أدنى حنكيّة جرّاء جوار الكسرة، فأصبحت مليّنة بياء خفيفة - k^y، ثمّ صارت t^y ثمّ $č$، ثمّ آلت في النّهاية إلى $š$"[23].

هذا الأسلوب في تعريف ظاهرة لغويّة وُصِفَت في المؤلّفات اللّغويّة العربيّة القديمة بأنّها هي ذاتها الألوفون المتعارف أنّه /č/، بات متّبعًا في الدّراسات الحديثة. نجد مثلًا أنّ أنيس يعرض لنواحي الاختلاف الصّوتيّ بين اللّهجات المختلفة، فيفرّق بين البدو والحضر في لهجاتهم ليميّزها بعاداتهم والطّبيعة المحيطة بهم[24]. وهو يعتمد في كتابه على "قانون الأصوات الحنكيّة"[25] (الّذي اعتمد عليه كانتينو سابقًا)، فيعرض مثلًا في باب "التّأثّر بالأصوات المتجاورة" الإشكال واللّبس في تعريف "الكشكشة"، ويخلص إلى "أنّنا هنا أمام روايات

---

[21] كانتينو، **دروس في علم أصوات العربيّة**، 101؛ Cantineau, *Cours de Phonétique Arabe, 64-65*.

[22] كانتينو، **دروس في علم أصوات العربيّة**، 101-102؛ Cantineau, *Cours de Phonétique Arabe, 65*.

[23] كانتينو، **دروس في علم أصوات العربيّة**، 102؛ Cantineau, *Cours de Phonétique Arabe*, 65.

[24] إبراهيم أنيس، **في اللّهجات العربيّة** (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1973)، 91-86؛ 115-100.

[25] يشرح أنيس هذا القانون كالآتي: "لاحظوا أنّ أصوات أقصى الحنك كالكاف والجيم الخالية من التّعطيش، تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أماميّة حين يليها صوت لين أماميّ كالكسرة، لأنّ صوت اللّين الأماميّ في مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلًا أصواتَ أقصى الحنك فتنقلب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك وأصول الثّنايا العليا". ن. م.، 123.

متناقضة لما يبدو كظاهرة واحدة"[26]. ثمّ يبدأ بالمقارنة بين ظاهرتين لغويّتين وفقًا للمعطيات والرّوايات الّتي ذكرها ويحلّلها ليبيّن التّناقض فيها، ويخلص إلى "أنّ ما خُيّل للقدماء أنّه 'شين' ليس 'شينًا' خالصة كتلك الّتي نعهدها، وما ظنّوه 'سينًا' ليس كالسّين الّتي نألفها"[27].

بعد ذلك يحاول تقصي استنتاجه وفقًا لـ "قانون الأصوات الحنكيّة"، ويشير إلى أنّه وفقًا لهذا القانون فقد "وجدت بعض الكلمات الهنديّة-الأوروبّيّة الّتي كانت تشتمل على الكاف، قد تطوّرت فيها هذه الكاف فيما بعد إلى صوت وسط الحنك الّذي ينطق به كما ينطق به كما ينطق الصّوت الأوّل في الكلمة الإنجليزيّة 'chicken'، أي 'تش'" [28]. هذا الأسلوب ظهر سابقًا عند كانتينو، الّذي قام بربط الحروف والأصوات الحنكيّة بواسطة مقاربة مخرجها وصفاتها؛ ويضيف أنيس أنّ هذا "الصّوت الّذي قد يخيّل إلى بعض السّامعين أنّه مكوّن من صوتين، ليس في الحقيقة إلّا صوتًا واحدًا كما برهنت التّجارب الحديثة في علم الأصوات، ويسمّي المحدثون هذا الصّوت وأمثاله "affricative". كذلك، فقد خصّص أنيس كتاب **الأصوات اللّغويّة**، الّذي فصّل فيه مخرج وصفات كلّ حرف من حروف اللغة العربيّة،

---

[26] ن. م.، 122.

[27] **ن. م.**، 123-122.

[28] **ن. م.**، 123. هذا الأسلوب في تعليل "الكشكشة" أنّها عبارة عن التّحويل الصّوتيّ *č* انتشر في الكثير من الدّراسات الحديثة، وذلك بعد إدراج تعريفها في المصادر القديمة. راجع: أحمد تيمور باشا، **لهجات العرب** (القاهرة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2011)، 39-47. وظهر هذا أيضًا عند الهنساوي في **العربيّة الفصحى ولهجاتها**، ولكنّه يضيف تعليل الكشكشة أنّها تتمثّل في البديل الصّوتيّ /č/ عن طريق قانون الأصوات الحنكيّة الّذي بات متّبعًا في الدّراسات المعاصرة. راجع: حسام الهنساوي، **العربيّة الفصحى ولهجاتها** (القاهرة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2004)، 121-125. وقد ظهر هذا الأسلوب لدى آل غنيم، الّتي عرّفت بدايةً "الكشكشة" وفق التّعريفات الّتي ذُكِرَت لدى النّحاة العرب، مرفقة التّعريف الحديث لها - أنّها البديل الصّوتي /č/. راجع: صالحة راشد آل غنيم، **اللّهجات في "الكتاب" لسيبويه أصولًا وبنيةً** (جدّة: دار المدني، 1985)، 252-258.

متطرّقًا إلى بعض الحروف غير المدوّنة في الكتب، أو كما أسماها النّحاة العرب "المنقولة بالمشافهة"[29].

من الأمور المثيرة للانتباه لدى أنيس أنّه يخلص إلى أنّ الظّاهرة اللّغويّة "الكشكشة" الّتي عاشت في بعض اللّهجات العربيّة القديمة ليست إلّا ظاهرة لغويّة شوهدت في كثير من لهجات العالم، وهي قلب الكاف الّتي تليها كسرة، أيًّا كان موضعها في الكلمة، إلى نظيرها من أصوات وسط الحنك[30]. ويعتمد في الاستنتاج الّذي يطرحه، على "أنّ ما سمعه الرّواة ليس شينًا وإنّما هو 'تش' [č]"، وعلى حقيقة شيوع هذه الظّاهرة في بعض اللّهجات العربيّة الحديثة "على صورة 'تش'، ولا يعقل أنّها كانت في اللّهجات القديمة شينًا ثمّ تطوّرت في اللّهجات الحديثة إلى 'تش'، فليس مثل هذا ما يبرّره التّطوّر الصّوتيّ"[31]. وقد وضّح سابقًا أنّ إحدى نواحي الاختلاف الصّوتيّ بين اللّهجات هو "اختلاف في نطق بعض الأصوات السّاكنة كالكاف الّتي هي في النّطق الصّحيح صوت شديد، ونسمعها في بعض اللّهجات الحديثة صوتًا أميَل إلى الرّخاوة (تش) كما هو الحال في بعض لهجات فلسطين وسوريا"[32].

يوافق السّامرّائي أنيس بأنّ "الكشكشة" الّتي تحدّث عنها النّحاة العرب، وصُنِّفَت على أنّها "من اللّغات المذمومة"، هي نفسها الألوفون الّذي تحدّث عنه أنيس، وأنّ هذا الحرف/ البديل الصّوتيّ ليس "شينًا صريحًا"، إنّما هو نفس الصّوت الّذي نسمعه الآن في اللّهجات الحديثة في العراق والخليج؛ ولكنّ الفرق بينه وبين أنيس أنّه يعتبر الحرف المضاف للشّين

---

[29] إبراهيم أنيس، **الأصوات اللّغويّة**، ط. 5 (القاهرة: مكتبة ألأنجلو المصريّة، 1979)، 24.

[30] أنيس، **في اللّهجات العربيّة**، 124.

[31] **ن. م.**، 125.

[32] **ن. م.**، 29.

هو جيم وليس تاء[33]. واللّافت لدى السّامرّائي أنّه يفصّل التّحوّل الصّوتيّ استنباطًا من "قانون الأصوات الحنكيّة" معلّلًا "أنّ الكاف فيها غيّرت مخرجها من أقصى اللّسان إلى وسطه، وهو مخرج الشّين، فكأنّها صارت شجريّة"[34].

وذُكر أيضًا أنّ بعض الباحثين يرون أنّ "ما يسمّى الشّنشنة هو صوت بين الجيم والشّين، أو هو صوت مركّب مثل 'تش' المعروف في الإنجليزيّة. وبما أنّ العرب لم يكونوا يعرفون كتابة ذلك الصّوت فإنّهم كتبوه تارة بالكاف وتارة بالشّين [...] على اعتبار أنّ العربيّة لا تعرف الأحرف المتداخلة أو المركّبة وأنّ تلك الأحرف المتداخلة قد ماتت ولم تعد مستعملة في العربيّة"[35]. ونرى الارتباك في تحديد هويّة هذا اللّفظ أيضًا لدى خريوش، فهو ينكر كون هذا اللّفظ مندرجًا تحت ظاهرة الكشكشة، والمشكلة أنّه يعلّل وجهة نظره عن طريق الاستناد في

---

[33] إبراهيم السّامرّائيّ، **في اللّهجات العربيّة القديمة** (بيروت: دار الحداثة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، 1994)، 63-62.

[34] **ن. م.**، 81. إنّ التّعليل بواسطة استخدام "قانون الأصوات الحنكيّة" كان متّبعًا كذلك لدى محقّقي مؤلّفات النّحاة العرب، فعلى سبيل المثال لا الحصر، أشار جمال طلبة في تحقيق **فقه اللّغة** للثّعالبيّ في هامش 13 إلى أنّ ظاهرة الكشكشة تُفسَّر وفقًا لقانون الأصوات الحنكيّة: "بأنّ أصوات أقصى الحنك كالكاف والجيم الخالية من التّعطيش تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أماميّة؛ حين يليها صوت لين أماميّ كالكسرة، لأنّ صوت اللّين الأماميّ في مثل هذه الحالة يجتذب إلى الأمام قليلًا أصوات الحنك، فتُقلَب إلى نظائرها من أصوات وسط الحنك، وهذا معناه أنّ الكاف المكسورة تتجوّل [تتحوّل] في هذه اللّهجات إلى صوت مزدوج هو 'تش'، ولذلك فإنّ إبدال الكاف شينًا ليس إلّا تطوّرًا للصّوت المزدوج 'تش'/ 'ش'، وتمّ هذا وفقًا لقانون الأصوات الحنكيّة، حيث مالت الكاف المكسورة بمخرجها إلى الأمام، فقُلِبَت إلى نظيرها الشّين". انظر: عبد الملك بن محمّد الثّعالبيّ، **فقه اللّغة**، تحقيق: جمال طلبة (بيروت: دار الكتب العلميّة، 1994)، 146-145.

[35] راجع: عادل مريخ، **العربيّة القديمة ولهجاتها: دراسة مقارنة بين ألفاظ المعجم السّبئيّ وألفاظ لهجات عربيّة قديمة، الجبليّة والمهريّة** (أبو ظبي: المجمع الثّقافي، 2000)، 35، 37-39.

أمثلته إلى ظاهرة النّفي اللّغويّة الّتي لها قوانين خاصّة مع أو دون ظاهرة الكشكشة (أو الشّنشنة). وهو كذلك يعطي تعريفًا لهذا اللّفظ بأنّه "تحقيق صوتيّ لصوت الكاف"، ويضيف أنّ بعض اللّغويّين يفسّر هذه الظّاهرة "بأنّها نتاج قانون الأصوات الحنكيّة"[36].

إنّ اللّبس في دقّة شرح مخرج الحرف أدّى إلى عدم وضوح أصل هذه الظّاهرة، وأرى أنّ المشكلة في هذا تكمن في الاعتماد على ما أطلق عليه هوبكينز (Hopkins) "قائمة اللّغويّات المعيبة" (catalogue of linguistic faults)[37]، وعدم التّطرّق إلى الحروف الزّائدة عن التّسعة والعشرين المعروفة، إذ كان جلّ التّركيز فقط على الكاف والشّين ومحاولة معرفة العلاقة الصّوتيّة بينهما لتؤدّي إلى التّغيير الصّوتيّ. إضافة إلى ذلك، إنّ التّعامل مع النّصوص المكتوبة فحسب أدّى إلى تكوّن مشكلة في الوصف الدّقيق لمخرج وصوت الحرف/ اللّفظ، خاصّة في الأبحاث الّتي ركّزت على نقل الظّاهرة اللّغويّة دون التّوجّه إلى إجراء أبحاث صوتيّة مختصّة.

هذه الإشكاليّات والملاحظات تشير إلى احتمال وجود ظاهرتين لغويّتين منفصلتين، إحداهما تقول بإرفاق حرف إلى آخر، والأخرى بمزج حرف بآخر. لا يمكن الجزم أنّ الظّاهرتين لم تكونا موجودتين قديمًا، بل على العكس، فكما أنّ إلحاق الكاف بشين لا يزال موجودًا إلى يومنا هذا، فإنّ احتمال وجود ال /č/ بلفظه الحاليّ قديمًا وارد جدًّا. وذلك لأنّ النّحاة العرب تجاهلوا رسم الحروف الزّائدة على التّسعة والعشرين، علمًا أنّها جميعها حروف تُعَدّ إشكاليّة بقدر ما، لأنّها وُصِفَت غالبًا أنّها "بين حرفين"، ولذلك لم تدوَّن. عدم تدوينها هذا لا ينفي وجودها، لأنّها "نُقِلَت مشافهة"، أي أنّها كانت تُستخدم في اللّغة العامّيّة

---

[36] انظر: عبد الرّؤوف خريوش، **اللّهجات الفلسطينيّة: دراسة صوتيّة** (عمان: دار أسامة للنّشر والتّوزيع، 2003)، 95-96.

[37] Simon Hopkins, "*Kaškaša*", *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* (Jerusalem: The Hebrew University of Jerusalem, 2004), 19-34.

أكثر من استخدامها في اللّغة الفصيحة. لكن، مع كلّ هذا، كان الأجدر إجراء أبحاث أعمق وأدقّ حول هذه الحروف الزّائدة، علّها تدلّنا على استمراريّات لفظيّة لم نفقه لها أصلًا لعدم تدوينها. عدا عن ذلك، لا يخفى على الباحث أنّ علماء النّحو واللّغة القدماء لم يعجزوا عن التّفريق بين لفظ وآخر، وكفى بمؤلّفاتهم شاهدًا على دقّة نقل تفاصيل الحروف، ولكنّهم آثروا نقل الحروف الأصيلة الفصيحة فضلًا عن الزّائدة المشوبة، إذ لو كانت "الكشكشة" هي ذاتها مزج التّاء بالشّين، لكان من الحريّ تسميتها "التّشتشة".

هذا "المفهوم ضمنًا"، الّذي يشمل ادّعاء أنّ النّحاة العرب القدماء لم يعرفوا كيفيّة تدوين حرف ما، أو الاعتماد على "قانون الأصوات الحنكيّة" الّذي يقود في النّهاية إلى ما هو "واضح" في التّحوّل الصّوتيّ، قد نُقِل -غالبًا- من علماء اللّسانيّات الغرب ليأخذها العرب دون محاولة تعمّق بانوراميّة. فهذا المثال الفرديّ الّذي نقلتُه في هذه الورقة البحثيّة ليس إلّا قطرة في بحر من التّناقضات اللّغويّة الّتي نواجهها في الأبحاث المعاصرة، لا سيّما أنّ محاولات تطبيق اللّغويّات واللّهجات الحديثة على القديمة تطبيقًا شبه أعمًى تجرى بالاعتماد على الأبحاث الاستشراقيّة الرّائدة منذ بدايات القرن العشرين.

قائمة المصادر والمراجع

ابن جنّي، عثمان. **سرّ صناعة الإعراب**. تحقيق: هنداوي، حسن. دمشق: دار القلم، 1985.

ابن دريد، محمد بن الحسن. **جمهرة اللّغة**. تحقيق: بعلبكي، رمزي منير. بيروت: دار العلم للملايين، 1987.

آل غنيم، صالحة راشد غنيم. **اللّهجات في "الكتاب" لسيبويه أصولًا وبنيةً**. جدّة: دار المدني، 1985.

أنيس، إبراهيم. **في اللّهجات العربيّة**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1973.

_____. **الأصوات اللّغويّة**. ط. 5. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1979.

الهنساوي، حسام. **العربيّة الفصحى ولهجاتها**. القاهرة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2004.

تيمور باشا، أحمد. **لهجات العرب**. القاهرة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة، 2011.

الثّعالبي، عبد الملك بن محمّد. **فقه اللّغة**. تحقيق: طلبة، جمال. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1994.

خريوش، عبد الرّؤوف. **اللّهجات الفلسطينيّة: دراسة صوتيّة**. عمّان: دار أسامة للنّشر والتّوزيع، 2004.

سيبويه، عمرو بن عثمان. **كتاب سيبويه**. تحقيق: عبد السّلام هارون. بيروت: دار الجيل، 2013.

الفراهيديّ، الخليل بن أحمد. **كتاب العين**. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرّائيّ. بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1988.

كانتينو، جان. **دروس في علم أصوات العربيّة**. ترجمة: صالح القرمادي. تونس: مركز الدّراسات والبحوث الاجتماعيّة، 1966.

المبرّد، محمّد بن يزيد. **الكامل**. تحقيق: محمّد أحمد الدّالي. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، 1986.

مريخ، عادل مسعود. **العربيّة القديمة ولهجاتها: دراسة مقارنة بين ألفاظ المعجم السّبئيّ وألفاظ لهجات عربية قديمة، الجبليّة والمهريّة**. أبو ظبي: المجمع الثّقافي، 2000.

الوافي، محمّد عبد الكريم. **منهج البحث في التّاريخ والتّدوين التّاريخيّ عند العرب**. بنغازي: جامعة قار يونس، 1990.

גבע קלינברגר, אהרון ויוסי בן ארצי. *הכרמל של פון מולינן*. ירושלים: הוצאת ספרים ע"ש י"ל מאגנס - האוניברסיטה העברית, 2013.

הופקינס, סימון. "לאונהרד באואר (1865-1964): ערביסט חלוץ ב'בית היתומים הסורי' בירושלים". *קתדרה 158*. טבת תשע"ו, 2015. 98-75.

Bergsträßer, Gotthelf. *Sprachatlas von Syrien und Palästina*. Leipzig: J. C. Hinrichs, 1915.

Cantineau, Jean. *Cours de Phonétique Arabe: Suivi de Notions Générales de Phonétique et de Phonologie*. Paris: Librairie C. Klincksieck, 1960.

Hopkins, Simon. "*Kaškaša*". *Jerusalem Studies in Arabic and Islam*. Jerusalem: The Hebrew University of Jerusalem, 2004.